جامعة الملك سعود
كلية الآداب
مجلة الآداب
ردمد ٣٦١٢-١٠١٨

King Saud University
College of Arts
Journal of Arts
ISSN 1018-3612

مجلة الآداب، م ٣١، ع ١، ص ص ١٠٧-١٢٩، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٩م/ ١٤٤٠هـ)

Journal of Arts, Vol. 31 (1), pp 107-129 , © King Saud University, Riyadh (2019 /1440H.)

صورة الرجل في روايات قماشة العليّان

عصام حسين إسماعيل أبو شندي

الأستاذ المشارك في الأدب والنقد، بقسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب، جامعة تبوك

تبوك ، المملكة العربية السعودية

(قُدِّم للنشر في ١/ ٩/ ١٤٣٩هـ، وقُبل للنشر في ٧/ ٣/ ١٤٤٠هـ)

الكلمات المفتاحية: قماشة العليّان، الرجل، صورة، شخصية.

ملخص البحث: تُحلِّل هذه الدراسة خمسًا من روايات قماشة العليّان لتظهر صورة الرجل في هذه الروايات. هناك عدة صور للرجل في هذه الروايات. الأولى هي صورة الرجل الذي يشبه الشيطان ويتحكم في الشخصيات الأخرى في الرواية. والثانية هي صورة الرجل الذي يحمل الضعف في مظهره وتسيطر عليه شخصيات قوية أخرى. الصورة الثالثة هي صورة الرجل المريض الذي يبدو دائمًا ضعيفًا بسبب مرضه، وأخيرًا، صورة الرجل الإيجابي. ومع ذلك، فإنَّ مظهر هذه الصورة يواجه صعوبات مثل: المرض، الطلاق أو الموت، مما يجعل ظهور الرجل الإيجابي نادرًا في روايات العليّان.

The Man's Image in Qumāshah Al-ʻAlyān's Novels

Issam Hussein Ismail Abushind
Associate Professor, Department of Arabic Lanquage, Faculty of Education and Literature, University of Tabuk

(Received 1/9/1439; Accepted for publication 7/3/1440H)

Keywords: Qumāshah Al-Alyān – the man – image – Character.

Abstract: This paper analyzes five novels, written by Qumāshah Al-ʻ Alyān, to show the man's image in these novels. There are several images of the man in these novels. The first one is the man who appears as the devil and controls other characters in the novel. The second is a man who carries weakness in his appearance and is controlled by other strong characters. The third image is the image of the sick man who always appears weak because of his illness. Finally, the image of the positive man. However, the appearance of this image faces difficulties such as the disease, the divorce or the death which makes the appearance of the positive man is rare in Al-ʻ Alyān's novels.

المقدمة

أصدرت الأديبة الروائية قماشة العليّان خمس روايات عبر مسيرتها الإبداعية: "**عيون قذرة**"٢٠٠٥م، و"**بيت من زجاج**"٢٠٠٢م، و"**بكاء تحت المطر**"٢٠٠١م، و"**أنثى العنكبوت**"٢٠٠١م، و"**عيون على السماء**" ١٩٩٨م، فضلًا عن ثلاث مجموعات قصصية قصيرة: "**الزوجة العذراء**"، و"**دموع في ليلة الزفاف**"، و"**خطأ في حياتي**"، ومن المظاهر الجمالية اللافتة للانتباه في كتاباتها القصصية، تركيزها الواضح على تصوير القضايا والمشكلات والعيوب الاجتماعية في المجتمع السعودي بوجه خاص، والمجتمعات الخليجية بوجه عام، حيث يمكن القول إنَّ كتاباتها هذه تعد تحقيقًا للدور الذي يفترض بالأدب أن يؤدِّيه في التعاطي مع الحياة وقضايا الأمة والمجتمع والإنسان، ليكون بذاك أداة فاعلة في بناء المجتمعات والأمم القوية المتطلعة إلى المستقبل.

ومن ثمَّ فإنَّ القارئ يلحظ من خلال قصصها، الظهور الواضح لشخصية "الرجل" في صور يغلب عليها الطابع السلبي، فالكاتبة (الأنثى) العليّان، تصنع في كل رواية من رواياتها عالمًا افتراضيًا، تدور أحداث القصة فيه حول (الشخصية الرئيسة / الأنثى)، التي تعاني في كل رواية من الأوضاع الاجتماعية التي تحيط بها، كطلاق الوالدين أو موت أحدهما أو إجبارها على الزواج ممن لا تحب، أو تجبّر زوجة الأب... إلخ؛ لكن الروايات لا تكاد تخلو البتة من الشخصية الذكورية السلبية التي تسهم بشكل فاعل في التسبب في معاناة الشخصية الرئيسة أو من حولها من الشخصيات الأنثوية وحتى الذكورية، بحيث يمكن القول إنَّ هذه الصورة غدت شكلًا نمطيًا في الروايات الخمس كلها.

وهذه الشخصية الذكورية السلبية إما شخصية شريرة متجبرة خائنة، فهي بذلك تتسبب في الأذى لمن حولها لا سيما الشخصية الرئيسة، أو شخصية منكسرة متقوقعة تتسبب في إيذاء من حولها بالإمعان في الانكسار، أو شخصية مريضة، وبالرغم من أنه يفترض أنَّ "المرض" هو أمر خارج عن إرادة الإنسان، إلا أنه وفي البناء الفني للرواية وداخل عالمها الافتراضي، يظل شكلًا من أشكال الصورة السلبية التي غلبت على صورة الرجل في روايات العليّان، وحتى الشخصيات الذكورية التي يلمس القارئ فيها قدرًا من الخيرية، فإنه يجد أن علاقتها مع الشخصيات الأخرى في الروايات، تنتهي غالبًا إما بالموت أو الطلاق أو الفشل في العلاقة. لذلك فقد قمت في هذا البحث بدراسة " صورة الرجل " في روايات العليّان خاصة، من دون مجموعاتها القصصية، تجنبًا لتضخم البحث. آملا الوصول إلى نتيجة علمية مقبولة.

تمهيد

تتعدد المعايير والأبعاد التي يُقسِّم الدارسون الشخصيات وفقهًا في الأعمال القصصية، وذلك لأنَّ

الشخصيات في الأعمال القصصية، تتعدد " بتعدد الأهواء والمذاهب والأيديولوجيات والثقافات والحضارات، والهواجس والطبائع البشرية التي ليس لتنوعها ولا لاختلافها من حدود "(**مرتاض، ١٩٩٨م، ص ٧٣**)، ومن هذه الأبعاد "البعد الحكائي" الذي تُقسِّم الشخصيات فيه إلى شخصيات رئيسة وشخصيات ثانوية، اعتمادًا على مدى فاعليتها في بناء الحدث ودفعه إلى الأمام، أو إلى شخصيات مدورة وأخرى مسطحة، اعتمادًا أيضًا على مدى التطور الذي يطرأ على الشخصية، أو ثباتها على هيئة واحدة على مدار صفحات القصة، ومنها كذلك "البعد الاجتماعي" الذي تقسم فيه الشخصيات بحسب وضعها الاجتماعي، إلى كبير وصغير أو غني أو فقير أو سيد أو خادم... إلخ، ومنها كذلك البعد الخارجي (الفيزيائي)، والذي تُقسَّم فيه الشخصيات بحسب شكلها الخارجي كالجنس إلى رجل وامرأة أو اللون كالأبيض والأسود، فضلًا عن البعد النفسي والبعد الفكري (**بربارى، ٢٠١٥م، ص ٢١ – ٢٩**)[1].

وقد دأبت العليّان في رواياتها الخمس التي صدرت لها، على أنَّ تحيط الشخصية الرئيسة في الرواية بجو مفعم بالحزن أو المعاناة أو القهر أو المرض، نتيجة ظروف يكون الإطار الاجتماعي فيها غالبًا هو سبب تعاسة الشخصية الرئيسة ومنطلقها، حيث تؤدِّي الشخصيات المحيطة بالشخصية الرئيسة عادة دورًا فاعلًا في توليد جو التعاسة هذا، سواء أكانت تلك الشخصيات ذكورية أم أنثوية. بحيث يمكن القول إنَّ العليّان تكاد تكون متخصصة في تناول قضايا المرأة، في إطار المجتمع السعودي بوجه خاص والخليجي والعربي بوجه عام، بسبب اهتمامها المميز والواضح " بموضوع العلاقات الأسرية، والأدوار التي يمارسها كلٌّ من أفراد الأسرة والمشكلات الناجمة عن تفككها تحت تأثير التطور الاجتماعي وسلطوية الرجل وتبدل القيم والمفاهيم "(**الأرناؤوط، ١٩٩٥م، ص ٨٣**).

ومن هنا يجد القارئ غلبة طباع السوء على شخصيات الرجال على امتداد الروايات الخمس؛ وهذا لا يعني بالطبع أنَّ شخصية المرأة قد تبدت في هذه الروايات في صور مثالية البتة، إذ تزخر الروايات بصور للمرأة القاسية والمستبدة والخائنة وغيرها، لكن الشخصية الرئيسة دائمًا- وهي امرأة بالطبع – هي تلك الفتاة المظلومة التي قست عليها الأوضاع الاجتماعية المحيطة بها، وهي أيضًا تلك التي لا يخلو محيطها الاجتماعي من أم مظلومة أو صديقة وفية، أما الرجل فتتبدى صورته غالبًا في واحدة من الصور الآتية: فهو إما شخصية مفعمة بقدر كبير من الشر أو القسوة أو

(١) يُنظر في هذا الجانب أيضًا في مؤلفات مثل: (**بن عباس، ٢٠١٥م، ص ١١– ١٥**)، (**تودوروف، ٢٠٠٥م، ص ٧٥- ٧٧**)، "(**مرتاض، ١٩٩٨م، ص ٨٧، ٨٨**)، (**ويليك، ١٩٩٢م، ص ٣٠١ – ٣٠٥**).

الخيانة، أو شخصية منكسرة جانحة إلى المسالمة بقدر كبير من السلبية، أو شخصية تعاني من مرض يفتك بها، أو شخصية تتمتع بقدر من طباع الخير، لكن الملاحظ أيضًا فيما يخصُّ الشخصية الخيّرة هذه، أنَّ علاقتها بمن حولها من الشخصيات ولا سيما الشخصية الرئيسة في الروايات، تنصرم إما بالموت أو الطلاق أو الفشل.

إذن فالانطباع العام الذي يخرج به المتلقي لهذه الروايات، هو أنَّ صورة الرجل قد تبدت قاتمة وسلبية بقدر كبير وواضح بموازاة صورة المرأة. وكما يقول عبدالملك مرتاض، فالشخصيات التي تملك القدرة " على تقمص الأدوار المختلفة التي يحملها إياها الروائي يجعلها في وضع ممتاز حقًا؛ بحيث، بواسطتها، يمكن تعرية أي نقص وإظهار أي عيب يعيشه أفراد المجتمع، وحين يقرأ الناس تلك الشخصية في رواية من الروايات العظيمة يقتنعون، أو يخادعون أنفسهم بأنهم مقتنعون، بأن تلك الشخصية تمثلهم على نحو ما، وربما رأوا أنفسهم فيها على هون ما "(**مرتاض، ١٩٩٨م**، ص ٧٩، ٨٠).

ومن هنا فإننا سنلج إلى دراسة صورة الرجل في هذه الروايات، انطلاقًا من البعدين الاجتماعي والفيزيائي الخارجي، اعتمادًا على أن البعد الذكوري هو بعد اجتماعي وفيزيائي في الوقت ذاته، مع مراعاة الأبعاد الأخرى في ثنيات الدراسة بحسب الحاجة.

وبذلك فإنه يمكننا أن ندرس صورة الرجل في هذه الروايات الخمس في أربعة محاور، وفق الترتيب الآتي:

أولًا- الشخصية الشريرة

وهي التي يطلق عليها حسن بحراوي اصطلاح الشخصية "المرهوبة الجانب" أو "المتسلطة"، وهي التي تحمل في جنباتها " قوة معاكسة تضع الحواجز والعراقيل أمام الشخصيات وتمارس عليها سلطتها "(**بحراوي، ١٩٩٠م**، ص ٢٧٨)، وهي تتبدى في روايات العليّان الخمس غالبًا في صورتين: فإما أن يظهر الرجل خائنًا أو أن يظهر فظًا قاسيًا بالغ القسوة، في حق الشخصيات الأنثوية والذكورية التي تحت سيطرته، ففي رواية "**عيون قذرة**" التي تحكي قصة الشخصية الرئيسة "سارة" التي عانت هي وأخوها فيصل معاناة شديدة بسبب انفصال والدهما ووالدتهما في فترة مبكرة من عمريهما، ومن ثم ارتباط كلٍّ من الأب والأم بشخص آخر وتكوين أسرة أخرى مستقلة، ما أدى إلى تشتتهما بين ثلاثة بيوت، بيت الأب حيث المعاناة من زوجة الأب، وبيت الأم حيث المعاناة من زوج الأم ومن لا مبالاة الأم المستهترة، وبيت العمة التي تقبلتهم وأساءت معاملتهم في الوقت نفسه.

الأمر الذي أدى بفيصل، بعد أن بلغا سن الرشد إلى الهجرة إلى لندن، للدراسة والعمل، وأدى كذلك

إلى إصابة سارة بمرض نفسي وموجات عصبية، ومن ثم يقرر فيصل الذي أصيب بمرض السكري استضافة شقيقته لمدة في لندن، حيث تفاجأ هناك بأخيها وقد تخلى عن كثير من القيم والعادات الشرقية، وعاش قدرًا كبيرًا من حياة الانحلال في لندن، لا سيما مع صديقته كاتيا ابنة المرأة اللبنانية جورجيت وشقيقة روبير، فيسمح لها فيصل بمرافقة روبير إلى الأسواق وحضور الحفلات، ومن ثم يقع المحذور بحمل سارة من روبير سفاحًا، ما يؤدي إلى تحمل سارة مقدارًا إضافيًا من المعاناة بسبب هذا الحمل، إلى أن تتخلص من تبعاته بالتدريج.

حيث تعلق صفتا الخيانة والقسوة في هذه الرواية، بالشخصيات الثانوية من الرجال فيها، وهذا عائد ولا ريب إلى أن العليّان أدارت القصة برمتها حول شخصيتين رئيستين، هما الراوية سارة وأخوها فيصل، وما عدا ذلك من الشخصيات فإنها تظل أقل أهمية من هاتين الشخصيتين برغم تفاوت هذه الشخصيات من حيث الأهمية والنماء خلال أحداث الرواية.

والشخصية الثانوية الأبرز التي حملت صفة الخيانة هنا هي شخصية روبير، فبالرغم من أن هذا الشخص يعيش نمطًا اجتماعيًا معتادًا في لندن، من حيث معاشرة النساء من دون زواج، إلا أن صورة الرجل الخائن تتبدى فيه ولا شك، ذلك أنه الشخص الذي أفقدها أعز ما تملكه المرأة، حيث تصف سارة ما حدث بينها وبين روبير، في أثر حضورها وشقيقها حفلة عيد ميلاد كاتيا، ومن ثم تفرد روبير بها لشرب الخمر، تصفه قائلة: " شربت وشربت، قادني للرقص مرة أخرى، مرات ومرات لأفيق بعد زمن لا أدريه على روبير وهو يساعدني على ارتداء ثيابي، ومن ثم حجابي وقد فقدت كل شيء.. الدين والشرف والمستقبل "(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص ١٦٣).

وبالإضافة إلى شخصية روبير، تتبدى طباع الشر في عدد من الشخصيات الثانوية الذكورية الأخرى، وهي: شخصية هاري مدير فيصل المباشر في مطعم الفندق، الذي كان يسيء معاملة فيصل وزملائه من العاملين العرب خاصة أيما إساءة لمجرد أنهم عرب وحسب، وشخصية الشاب المصري مصطفى، الذي كرهه فيصل كرهًا شديدًا بسبب غيرته من فيصل وحقده على الخليجيين، وشخصية عليّ ابن عمة سارة الذي دخل عليها غرفتها وهو في حالة سكر(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص ٤٤، ٤٦، ٥٢، ١٢٧)، وبالرغم من كون هذه الشخصيات ثانوية، إلا أنَّ وجودها يشحن عالم هذه الرواية بقدر من الانطباع السيء عن الشخصية الذكورية فيها، وكما يقول عبد الملك مرتاض أيضا: " فالشخصية تسخر لإنجاز الحدث الذي وكل الكاتب إليها إنجازه، وهي تخضع في ذلك لصرامة الكاتب وتقنيات إجراءاته وتصوراته وأيديولوجيته: أي فلسفته في الحياة "(**مرتاض**، ١٩٩٨م، ص ٧٥، ٧٦).

وفي رواية **"بيت من زجاج"** التي تحكي قصة "منى" الفتاة المقهورة أيضًا التي قست عليها الأوضاع بعد وفاة والدتها ومن ثم شقيقتها الصغرى، لتظل وحيدة هي وشقيقها الصغير أحمد، تجابه قسوة الوالد وزوجته الخائنة التي جلبت عشيقها إلى بيت زوجها، وحينما اكتشفت منى هذه الخيانة سارعت زوجة الأب إلى اتهام منى بأنها هي من فعلت هذه الفعلة، ويصدقها الأب القاسي ومن ثمَّ يزوجها لشيخ طاعن في السن هو العم صالح، وهناك تتفتح لها قصة الشاب المريض بالإيدز وليد ابن أخت العم صالح، الذي قسى عليه خاله وأودعه غرفة في قصره حتى يلقى حتفه بعيدًا عن أعين الناس، فتكشف منى أبعاد هذه القصة الغريبة، لتعود فائزة بقسط وافر من ثروة العم صالح قبيل وفاته.

في هذه الرواية تتجلى صفتا القسوة والخيانة –وهما من لوازم الشخصية الشريرة ولا ريب –في شخصية والد منى وهو من الشخصيات الرئيسة في الرواية، حيث تتجلى صفة القسوة الممزوجة بالخيانة فيه في أكثر من موقف، من أبرزها موقفه عندما تصرف بوقاحة وفظاظة حينما كانت زوجته ووالدة منى تعاني من مرضها الذي توفيت بسببه فيما بعد، فجلب امرأة غريبة ليمارس معها الفاحشة في البيت، إذ تصف منى هذا الموقف بقولها:

" صرخت أمي في جوف الليل البهيم صرخة أفزعتني وأوقفت الدم جامدًا في عروقي.. أسرعت إلى حجرتها أتعثر بخوفي.. شلني المشهد الذي رأيته، فبقيت جامدة لا أريم أحدِّق بأبي وأمي وتلك المرأة الغريبة.. كانت أمي تصرخ وتصيح قائلة:

– أخرجها حالًا من حجرتي.. فليس معنى صمتي عن خطاياك أن تبلغ بها بيتي.. وحجرتي بالذات.. هيا اخرجوا..

وأبي يرد قائلًا بسخريته المعهودة:

– إنك شيطانة كبيرة.. ألم أناولك بنفسي جرعة كبيرة من المخدر لتنامي " (**العليّان ٣، ٢٠١٣م**، ص ٦٣، ٦٤).

وتتجلى قسوته كذلك بعد الموقف الذي اكتشفت منى فيه خيانة زوجته عواطف له مع عشيقها، حيث دبرت عواطف مكيدة قلبت فيها الحقيقة، حينما اتهمت منى بأنها التقت شابًا جلبته إلى البيت، تقول منى:

" فقد عدت ذلك اليوم من المدرسة لأجد أبي أمامي منتفخ الأوداج.. متغير الوجه وانقلبت سحنته انقلابًا عظيمًا.. نظرت إليه بخوف وقد سقط قلبي بين أقدامي، فقد قدرت أنه ربما يكون قد اكتشف خيانة زوجته له.. لكن الصفعة القوية على وجهي أيقظتني من كل أحلامي.. وفوجئت بأبي يهدر يغضب:

– تكلمي أيتها السافلة.. من هذا الشاب الذي تستقبلينه في البيت في غيابنا ؟ "(**العليّان ٣، ٢٠١٣م**، ص ٩١).

إذن فالأمر الذي لا ريب فيه أن العليّان تناولت " في أعمالها الروائية صورة الأب بشتى جوانبه، حيث ظهر الأب بقسوته وظلمه واستبداده، ظهر بقلب لا يرحم وعين لا تدمع فسلط سيفه على الجميع بنسب متفاوتة "(**الفقير**، ٢٠٠٩م، ص ٣٢).

أما رواية "**بكاء تحت المطر**"، التي تحكي قصة الطبيبة النفسية التي تصادف شخصية الشاب خالد وهو أحد مرضاها النفسيين، فتقع تحت تأثير عاطفي يتمثل في انجذابها لهذا الشاب؛ لأنه يذكرها بحبيبها وزوجها الراحل حسن، فتعيش حالة من التعاطف مع هذا المريض، الذي تتكشف ملامح قصته في أنه يعيش حالة من الرهاب النفسي ورثها منذ صغره، بعد أن حاول والده القاسي أن يقتله بحرقه بالنار ثم ذبحه بالسكين، الأمر الذي ولَّد له حالة من الرغبة اللاشعورية في الانتحار، حاول على إثرها قتل نفسه أكثر من مرة. حيث يمكن القول إنَّ العليّان في هذه الرواية خاصة، اقتربت " من الواقع باعتمادها على التحليل النفسي في إدارة الصراع، سواء على مستوى الذات أو الآخر أو المجموع فجاءت الشخصيات مرسومة بملامح نفسية متقنة منعكسة على خليفات فكرية تدل على وعي بالذات "(**الشريف**، ٢٠٠٣م، ص ٦٦٩).

ففي هذه الرواية تتجسد صفة القسوة في والد خالد، الشخصية الرئيسة إلى حد ما في الرواية، والتي تشهد شيئًا من التطور يتمثل في طلاقه لزوجته، وانفصاله عنها وولدها خالد وشقيقاته الأربع، حيث تصف طليقته أثناء بوحها للطبيبة المعالجة قسوته في موقفين، تقول في أولهما: " كعادة أهلنا في هذه المنطقة، فقد تزوجت والد خالد وأنا لا أعرفه ولا أعلم عنه شيئًا ولا حتى صورته.. وفوجئت به بعد الزواج.. فقد كان قاسيًا متزمتًا كعود الحطب.. كان يضربني بسبب وبدون سبب.. "(**العليّان ٢**، ٢٠١٣م، ص ٢٨).

وتقول في ثانيهما الذي تتجلى فيه قسوة الوالد إلى حد مرعب: " وفوجئنا جميعًا ذلك اليوم المشئوم بالأب وهو يكاد يجن غضبًا، يحمل " خالد " وهو يهدر بقسوة: سأقتله.. سأقتل هذا الولد.. قسمًا بربي سأقتله.. وأسرعت وراءه لأجده فعلًا يقوم بسكب البنزين على رأس الصغير ويحاول إشعال النار فيه، ولما حاولت إنقاذه من بين يديه استل سكينًا كبيرة كانت في المطبخ وقتذاك.. وهددني بذبحه أمام عيني إذ لم أبتعد عنهما.. (...) وما إن انقضت لحظات على بكائي وعويلي حتى أسقط ابنه أرضًا وأسرع خارجًا من البيت "(**العليّان ٢**، ٢٠١٣م، ص ٤٥، ٤٦).

ولعل قسوة الرجل تتجلى في أوضح صورها في شخصية والد الشخصية الرئيسة "أحلام" في رواية "**أنثى العنكبوت**" التي تدور أحداثها حول هذه الفتاة التي أنهت دراستها الجامعية، وعُيِّنت معلمة في إحدى القرى في ضواحي الرياض، حيث يتصف والد أحلام

في الرواية بقسوة شديدة وظلم وجبروت وانعدام الرحمة، الأمر الذي أدَّى إلى حالة من التشتت لحقت بأغلب أفراد الأسرة؛ من موت الأم التي تُوفيت بسبب مرض نفسي ألَّم بها، إلى وفاة إحدى شقيقاتهم أيضًا بالمرض نفسه، إلى تزويج الشباب والبنات رغمًا عنهم، وصولًا إلى إفشال زواج أحلام بمن تحب وتزويجها من ثم برجل مسن، الأمر الذي يؤدِّي بها إلى حالة من شبه الجنون في نهاية القصة، تؤدِّي بها إلى قتل زوجها.

حيث تتجلى القسوة في المقام الأول في شخصية والد أحلام، وهو من الشخصيات الرئيسة والفاعلة في بناء أحداث الرواية، ومن ثم في شخصيتين ثانويتين هما العم صالح الرجل المسن الذي تتزوجه أحلام رغما عنها مجبرة من والدها، وكذلك في شخصية زوج بدرية شقيقة أحلام السكير العربيد الذي كان يسيء معاملة بدرية له. إذ تتجلى قسوة الوالد الصارخة في مواقف من أبرزها، عندما حاول أحد الجيران اغتصاب أحلام وهي طفلة، فهرعت لوالدها تروي له ما حصل، وبدلًا من أن ينتقم لطفولتها انهال عليها ضربًا وأتهمها بسوء الأخلاق والتربية (**العليّان ١، ٢٠١٣م**، ص ١٤).

وكذلك في موقفه حينما تزوَّج على أمهم في أوج مرضها قبيل وفاتها، وجلب زوجته الجديدة لتعيش في غرفتها، إذ تصف أحلام ذلك الموقف بقولها:

" قاطعتها أمي:

– سأذهب إلى المستشفى ولن أعود إلى هنا أبدا...

فتح أبي الباب بهدوء ثم وقف لحظة يقيس الموقف قبل أن يقول:

– أعيدي الحقيبة إلى مكانها يا أم صالح... وكوني هادئة وطيبة فلن تخرجي من بيتك إلا إلى القبر... (...) وبدلًا من أن يُهدِّئ من روعها صفعها بعنف، وازداد صراخها وهياجها... في تلك الليلة أودعنا أمي المستشفى "(**العليّان ١، ٢٠١٣م**، ص١٦، ١٧).

والموقف المؤثر كذلك حين رفض مساعدة ابنه خالد في علاج الحفيد ابن خالد المصاب بالسرطان، حين جاءه خالد منهارًا يشكو إليه ضياع الطفل من بين يديه شيئًا فشيئًا، حيث تصف أحلام ردة فعل والدها القاسية بقولها:

" {الأب} – ما شاء الله هذه آخر تربيتي وتعبي... يقول لي أعطني ميراثي منذ الآن... (...) {أحلام} – إنه مهزوم يا أبي... هزمت الدنيا والظروف... وهو بحاجة إليك بحاجة إلى حنانك وعطفك ووقوفك إلى جواره... إنه بأزمة يا أبي... إن ابنه يموت...

صرخ بحدة:

– فليموتا كلاهما... ما شأني أنا... فليرثني بعد أن أموت وليس وأنا على قيد الحياة "(**العليّان ١، ٢٠١٣م**، ص٨٢).

وتتجلى قسوة الرجل في هذه الرواية في الشخصيتين الثانويتين، شخصيتي زوج بدرية والعم

صالح؛ فزوج بدرية أخت أحلام شخص سكير عربيد كان يسيء معاملتها (**العليّان ١**، ٢٠١٣م، ص١٣)، إلى أن وافاه الأجل، أما زوج أحلام فهو ذلك الرجل المسن المقزز الذي أجبرها والدها على الزواج منه بعد أن حرمها من الزواج ممن تحب، ليقوم هذا الرجل المسن بضربها تعبيرًا عن غضبه وحنقه منها لعجزه عن معاشرتها جنسيًا (**العليّان ١**، ص١٧٥، ١٧٦)، ما يؤدِّي بها في النهاية إلى قتله في لحظة انفعال لتتحول من إنسانة سوية بناءة في المجتمع إلى مجرمة قاتلة.

أما الرواية الخامسة والأخيرة، وهي أقدم روايات العليّان وباكورة إنتاجها الروائي، فهي رواية "**عيون على السماء**"، والتي تحكي قصة الفتاة هدى التي يجبرها والدها أيضًا على الزواج من الرجل الثري عبدالله عيسى سدادًا لدين كان مترتبًا له على والدها، فتتزوجه ومن ثم تقع أحداث احتلال الكويت عام ألف وتسعمائة وتسعين ميلادية إبان احتلال العراق للكويت، فتلجأ الأسرة إلى المملكة العربية السعودية في الرياض، وتنجب هدى مولودها مشلولًا، ويطلّقها زوجها لترتبط بعد ذلك بابن عمها سالم، وتطلّق منه بعد خلافات، ومن ثم يتجدد حبها القديم لابن الجيران عماد ويقرران الارتباط، لكن الزواج يفشل في آخر لحظة بسبب موت طفلها جابر ليلة الزفاف.

حيث تتجلى صفة الشر في والدها الذي زوَّجها لعبدالله سالم مرغمة، سدادًا لدين كان مترتبًا له عليه، إذ يتجلى ذلك الموقف عندما استمعت هدى خلسة لحديث دار بين والديها، يقول الراوي : " علا صوت والدها وهو يقول:

– وأنا ما ذنبي.. أبو خالد خطيب هدى دائن لي بنصف مليون دولار.. وأنت تعرفين بأنني لا أستطيع السداد له الآن (...) لم تتصور أنها رخيصة عند والدها إلى هذا الحد.. إلى درجة أن يبيعها لرجل غني.." (**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص٢٣).

وتتجلى هذه الصفة أيضًا في صورة زوج هدى، عندما علمت ليلة العرس أنه متزوج قبلها من امرأة أخرى من دون أن يعلمها من قبل، ما تسبب لها في صدمة كبيرة (**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص٢٤)، فضلًا عن صورته عندما لم يسأل عنها وعن طفله جابر منها بعد أن ولدت الطفل مشلولًا (**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص٤٢).

إذن فقد لحظنا من خلال ما سبق أنَّ هذا النوع من الشخصية الذكورية لدى العليّان، يكاد يكون حتمي الورود في كل رواية من رواياتها، وكما يقول رينيه ويليك وأوستن وارين، إنه ربما " قيل إن العمل القصصي يقدم " عرضًا لتاريخ حالة " – تصويرًا أو تمثيلًا لنموذج أو لنمط شائع عام من الأعراض (...) بيد أنَّ القاص لا يقدم حالة – سواء بالنسبة للشخصية أو للحدث – وإنما يقدم عالمًا "(**ويليك، ١٩٩٢م**، ص٢٩٣)، والعليّان في ظننا لا تقدم حالة وإنما تقدم

عالمًا يتجلى من خلال حتمية ورود هذا النوع من الشخصيات، وهو الشخصية الذكورية القاسية الخائنة التي تتسبب في أذى من حولها، فنحن إذن " هنا أمام صرخة من المؤلفة: علينا مواجهة الواقع وليس الهروب منه، تشخيص المشكلة ووضع الحلول لها وليس تجاهلها وتناسيها "(**الشريف، ٢٠٠٣م، ص٦٦٧**).

ثانيًا-الشخصية المنكسرة

وهي التي يتمثل قبحها الذي ينفّر المتلقي منها، في انكسارها واستكانتها، بحيث تكون معينة للشخصيات الشريرة، الذكورية والأنثوية، على التمكن من بسط إرادتها وإلحاق الأذى بها وبغيرها من الشخصيات في الروايات، فالانكسار يمثل ولا ريب شكلًا من أشكال السوء، التي تلبست صورة الرجل في روايات العليّان في عمومها، ومكملًا للبعد الأول الذي تمثل في الشخصية الشريرة. فنحن لا نتحدث عن "شخصية" هنا بقدر ما نتحدث عن ظاهرة، تكون الشخصية فيها " بمثابة دال من حيث أنها تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخص هويتها، أما الشخصية كمدلول فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها، وهكذا فإن صورتها لا تكتمل إلا عندما يكون النص الحكائي قد بلغ نهايته "(**لحمداني، ١٩٩١م، ص٥١**).

وبالعودة إلى رواية "عيون قذرة" فإننا نجد أنَّ الشخصية المنكسرة المستكينة تتمثل في شخصيتين: إحداهما رئيسة والأخرى ثانوية، أما الشخصية الرئيسة فهي شخصية فيصل الأخ الشقيق للشخصية الرئيسة سارة، وبالرغم من أنَّ هذه الشخصية تصنف على أنها من الشخصيات المريضة، كما سنلاحظ في المحور الثالث من هذه الدراسة، إلا أنها شخصية فيها قدر من الانكسار ساعدت الشخصية الشريرة روبير على إيقاع الأذى بسارة، وذلك بانكساره وتخليه عن القيم والعادات الشرقية الإسلامية، وسماحه من ثم لروبير بممارسة الفاحشة مع شقيقته سارة لفرط ما فيه من انكسار في هذا الجانب خاصة، حيث تصف سارة استكانته في هذا الجانب بقولها: " هو من عرفني بروبير، هو من رتب لقاءاتنا بل وسعى إليها، هو الذي أجاز لي حرية لا أملكها، وأقحمني في دروب لم أسلكها، ومنحني صك الغفران.. "(**العليّان ٥، ٢٠١٤م، ص١٦٤**).

أما الشخصية الثانوية فهي شخصية والد سارة الذي كان بانكساره هذا معينًا لزوجتيه الأولى والثانية، على الإيغال في السوء وإلحاق الأذى بمن حولهما من الشخصيات الأخرى.

إذ تصف سارة موقف والدها عندما طلبت منه زوجته الأولى " أم سارة " أن يطلقها، بقولها:

" انتحب أبي بحرقة وألم دافنا وجهه بين كفيه (...) صفعة قاسية ختمت بها اكتشافي المهول وبدأت بها دنيا مضمخة بالحسرات "(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص١٠)، مثلما تصف له موقفًا آخر تختلط فيه صفتا الشر والانكسار في آن معًا من دون أي تناقض، وذلك في الليلة التي أقامت فيها زوجة والدها في حفلة عيد ميلاد لشقيقتها من أبيها، عندما تباكت زوجة الأب وشكت من عدم مسارعة سارة إلى خدمتها ومشاركتها فرحتها بتلك المناسبة، حيث تعبر سارة عن ذلك بقولها: " وكأنما ضغطت { زوجة الأب } على زر تشغيل لرجل آلي.. فتحرك بسرعة لينتشلني من الأرض، ويصفعني للمرة الأولى في حياتي.. وهو يقول ربما بلا اقتناع:

– كوني مطيعة لخالتك في المرة القادمة..

ثم يتأبط ذراع زوجته ويخرج.. "(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص٢٧).

وفي ظني أنَّ التعبير الذي وظَّفته سارة بقولها: (وهو يقول ربما بلا اقتناع)، يجسد إلى حد بعيد مدى انكسار والدها أمام زوجته الثانية، في هذا الموقف الذي ألحق فيه الأذى الجسدي بابنته، مثلما ألحق بها الأذى النفسي في موقفه المستكين الباكي مع زوجته السابقة لحظة طلبها الطلاق منه، الأمر الذي ساعد هاتين الشخصيتين على الإمعان في الشر وإيذاء الشخصية الرئيسة وغيرها من الشخصيات في الرواية.

وإذا كنت قد صنفت في المحور الأول من هذه الدراسة، شخصية والد الشخصية الرئيسة منى في رواية "بيت من زجاج"، على أنها شخصية شريرة، فإنني لا أجد تناقضًا إذا قلت إنها أيضا شخصية تحمل قدرًا من الانكسار، الذي هو رديف للشر ومعين له في الوقت نفسه، والانكسار الذي أعنيه هنا ليس بمعنى الضعف، وإنما هو خور في الإرادة يفضي إلى مساعدة شخصية شريرة أخرى على ممارسة بطشها في حق شخصية أخرى مظلومة في الرواية.

فعلى الرغم من غلبة طبع الشر على والد منى في هذه الرواية، فإنَّه يعين زوجته عواطف على إذلال ابنته حينما طلبت منها أن تعمل على خدمتها في البيت، حيث تصف منى هذا الموقف بقولها:" { زوجة الأب} – ولماذا تعتمدين على الخادمة.. إنك ما زلت فتاة صغيرة وإذا اعتدت على الخادمة منذ الآن، فلن تنجحي في حياتك الزوجية مستقبلا..

ثم التفتت تحادث أبي:

– أليس كذلك يا عبدالله؟

– بلى.. أنت محقة في كلامك يا عواطف.. لقد أفسدتها أمها بالتدليل.. لن تنفع لبيت أو زواج إذا ظلت على حالتها هذه.. "(**العليّان ٣**، ٢٠١٣م، ص٨٢).

أما شخصية خال منى، وهي من الشخصيات الثانوية في القصة، فإنَّ الانكسار هو الطبع الذي

اتصفت به في المشهد الوحيد الذي ظهرت فيه في الرواية، وذلك عندما انفض العزاء بعد وفاة والدة منى، فعرض على منى وإخوتها الصغار الانتقال والعيش معه، وهو في حال من الانكسار والخوف من زوجته، أن تقبل منى العرض، تقول منى واصفة هذا الموقف: " وبدأ بيتنا يخلو شيئًا فشيئًا.. ابتدأ الأقارب ينسحبون الواحد تلو الآخر.. كان آخرهم هو خالي الوحيد وزوجته يسكنان في قرية بعيدة نائية.. قبل أن يخرج همس خالي في أذني:

- هل ترغبين يا منى أنت وإخوانك أن تحلّوا ضيوفًا عندي ولو لبعض الوقت، ثم التفت يرمق زوجته في خوف قبل أن يتابع:

- ولكن تعرفين يا بنتي أن بيتنا مزدحم بالأطفال أعاننا الله عليهم (...) وخرج خالي محدثًا فجوة عميقة داخل نفسي "(**العليّان ٣**، ٢٠١٣م، ص٥٩، ٦٠).

أما في رواية "أنثى العنكبوت" فإن حالة الانكسار هذه، لا تكاد تخلو منها شخصية من الشخصيات الواقعة تحت إمرة الرجل الجبار والد أحلام، ذكورًا وإناثًا، وهذا عائد إلى طبيعة هذه الشخصية التسلطية القوية الشريرة، التي لا تقبل مما تحت إمرتها من الشخصيات إلا أن تكون منكسرة لها، حيث تتبدى هذه الصفة في أولاده من الذكور، وهم من الشخصيات الثانوية في الرواية، إذ لم يكن لهم إلا أن يخضعوا لإرادته حتى في أدق شؤونهم الخاصة، ومنهم على سبيل المثال ابنه البكر صالح، الذي أجبره والده على الزواج من ابنة عمه التي لا يحبها: " وضع صالح يده على مكان الصفعة وهم أكثر من رمة بفتح فمه ليتكلم... ليناقش... ليصرخ أو يعترض لكنه لم يستطع (...) تزوج بعين وعقل أبيه... تزوج مرغمًا يائسًا كارهًا "(**العليّان ١**، ٢٠١٣م، ص٢١، ٢٢).

وعلى العكس من الرواية السابقة، فإنَّ صفة الانكسار هذه تتجلى في رواية "عيون على السماء" في واحدة من الشخصيات الرئيسة لا الثانوية، وهي شخصية والد هدى الذي تبدى انكساره في أكثر من موقف، من أبرزها انكساره أمام رجل الأعمال الثري عبدالله عيسى، الذي قبل أن يزوجه ابنته الصغيرة هدى ليكون زواجها منه مقابل سداد دين له عليه، بحيث كان الانكسار هنا معينًا للشخصية الشريرة على إنفاذ إرادتها، إذ تسمع هدى حوارًا تقول فيه والدتها لوالدها:

" – ولكن هدى.. ما ذنبها في هذا كله ؟

علا صوت والدها وهو يقول:

- وأنا ما ذنبي.. أبو خالد خطيب هدى دائن لي بنصف مليون دولار.. وأنت تعرفين بأنني لا أستطيع السداد له الآن (...) وعادت هدى إلى حجرتها تبكي.. تبكي في صمت "(**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص٢٣).

وكذلك تظهر في موقف والد هدى حينما رأى الرسالة الغرامية التي أرسلها ابن الجيران عماد لابنته

هدى (**العليّان ٤، ٢٠١١م، ص١٢٠**)، من دون أن تظهر منه ردة فعل الرجل الشرقي، الذي ينتظر منه أن يثور في مثل هذه الحالة كما جرت العادة، سواء في عالم الواقع أو في العالم القصصي المتخيل، الذي ينتظر منه أن يكون محاكاة للعالم الواقعي، فأظهر بذلك انكسارًا يلفت انتباه المتلقي، ويسهم في دمغ صورة الرجل هنا بقدر من السلبية، التي تتوافق كما يبدو مع إرادة العليّان في إظهاره بهذه الصورة.

إذن يمكن الحكم حتى هذه اللحظة من البحث، أن تبدّي الشخصية الذكورية في هذين النوعين من البعد السلبي، أسهم بشكل فاعل في تمكين العليّان من تجسيد القيم الاجتماعية التي سعت لعرضها في هذه النصوص وجعلها غرضًا للنقاش، فرواياتها إذن في هذا الجانب هي " سفر غني بتجارب الحياة، ونداء إلى الأجيال، يقدم له العظة والاعتبار والوعي الإنساني "(**الأرناؤوط، ١٩٩٥م، ص٨٩**).

وهذا ولا ريب وجه من الوجوه المشرقة لتوظيف الأدب في علاقته بالحياة، عندما يشعر المتلقي " بأوجاع جسمه في أوجاع جسم إنسان مثله، هناك تتخذ عواطفه الصماء لسانًا من عواطف الشاعر، وتلبس أفكاره رداء من نسيج أفكار الكاتب، فيرى من نفسه ما كان خفيًا عنه، وينطق بما كان لسانه عييًا عن النطق به "(**نعيمة، ١٩٩١م، ص٢٦، ٢٧**).

ثالثًا-الشخصية المريضة

بالرغم من أنَّ "المرض" ظاهرة بيولوجية، وقدر ربّاني ليس للإنسان فيه إرادة في معظم الأحيان، وبالرغم من أن الشخصيات الذكورية ليست هي الوحيدة التي تصاب بالمرض في روايات العليّان، إذ تشاركها فيها الشخصيات الأنثوية فضلًا عن الأطفال، بالرغم من هذين الجانبين إلا أنه يمكن عدّ "المرض" الذي تصاب به الشخصيات الذكورية، شكلًا من أشكال الصورة السلبية للرجل في الروايات، ومكملًا للبعدين السابقين: الشخصية الشريرة والشخصية المنكسرة، إذ لا تكاد تخلو رواية من روايات العليّان الخمس من شخصية مريضة، وهنا يبدو جليًا أن العليّان " أرادت أن تكشف لنا هذا البعد في المجتمعات الخليجية، حيث سلطت الضوء على مجموعة من الأمراض التي تمس تلك المجتمعات، فنجدها تتناول العديد من الأمراض في تلك الروايات "(**الفقير، ٢٠٠٩م، ص٤٦**).

ففي رواية "عيون قذرة" يعصف المرض بشخصية فيصل على شكل نوبات ألم شديدة بفعل حصى في الكلى، يصفها فيصل بقوله: " لا أدري كم نمت حتى صحوت على آلام شديدة تعصف بكياني.. آلام مبرحة في جنبي الأيسر وغثيان لا يوصف، لحظات، وبدأت أتقيأ وأنا لا أقوى على الحراك من شدة الألم (...) كنت أبكي بدموع حارقة من شدة الألم، وأتلوى على نفسي

غير قادر على الوقوف أو حتى النوم "(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص٧٦)، لكنها آلام عارضة تزول بعد عملية جراحية تجرى له، أما المرض العضال الذي يرافقه طوال حياته فهو مرض السكري الذي يصفه فيصل بقوله: " اهتززت قليلا لوصفها [كاتيا] لي بالمريض، لكنني لم أفسد بقية اليوم، فقد تنزهنا وسعدنا ثم عدنا وقد توطن في قرارة نفسي شيء ما.. أن المرض لصيق بي.. يلاحقني أينما كنت، فيجب أن أعامله كشخص.. كرجل آخر.. كحارس.. إذا لم أعتن به جيدًا فتك بي.. ولمزيد من التأكيد وحتى لا يأخذني النسيان بدوامته أطلقت على مرضي اسم رجل "متعب".. فعندما أشعر بعوارض الدوخة والتعب أعرف أن متعب غاضب ويريد شيئًا ما "(**العليّان ٥**، ٢٠١٤م، ص٨٣).

وفي رواية "بيت من زجاج" تكتشف الشخصية الرئيسة منى في القصر الذي أسكنها فيه زوجها المسن العم صالح، غرفة مغلقة هي بمثابة لغز تسعى إلى فك سرّه، لتكتشف أنَّ في هذه الغرفة فتى اسمه "وليد"، هو ابن أخت العم صالح وأنه محبوس بسبب إصابته بمرض الإيدز، إذ حبسه خاله خوفًا من العدوى وخوفًا من الفضيحة، حيث يروي وليد لمنى الظرف الذي أصيب فيه بهذا المرض العضال بقوله: " (...) ثم أراد والدي أن يكافئني.. وكانت بداية النهاية، فقد أهداني رحلة طويلة إلى عدد من العواصم العربية والأوربية.. تعرفت أثناءها على عدد كبير من الفتيات (...) حتى كانت المصيبة عندما أردت التبرع لشقيقتي بدمي.. فقد أصابها نزيف شديد أثناء الولادة احتاجت معه لنقل دم.. تقدمت للتبرع وفي اليوم التالي طلبني الطبيب على وجه السرعة.. لم يدر بخلدي أي شيء.. ولم أتوقع أي شيء.. المفاجأة رواها لي الطبيب بهدوء.. قال إنني مصاب بالإيدز "(**العليّان ٣**، ٢٠١٣م، ص١١٣)، وتتعاطف معه منى لكن وضعه الصحي ينهار فيه ومن ثم يموت (**العليّان ٣**، ٢٠١٣م، ص١٣٧)، هذا فضلًا عن شخصية العم صالح زوج منى، الرجل المسن الذي يدركه المرض في النهاية؛ ليأخذه أولاده الكبار ويستعيدوه من زوجته الصغيرة منى (**العليّان ٣**، ٢٠١٣م، ص١٣٥).

وكما ذُكر سابقًا فإنَّ رواية "بكاء تحت المطر" تدور أحداثها في مجملها حول الشاب خالد المصاب بحالة من الرهاب النفسي، بسبب محاولة والده قتله وهو صغير، حيث يصف خالد للطبيبة النفسية التي تتعاطف معه بشدة، يصف لها حالته بقوله: " وبدون شعور أحاول أن أقتل نفسي.. أفقت مرة وأنا أحاول طعن نفسي بسكين حادة.. وأمي تحاول انتزاعها مني وهي تنتحب بحرقة.. وأخرى وجدت نفسي قد سكبت البنزين على رأسي، وأحاول إشعال عود ثقاب، لولا أن تدخلت أختي الصغرى آخر لحظة لتنقذني.. والكل يتساءل لماذا أحاول الانتحار.. ماذا

يحدث في حياتي لأحاول التخلص منها بهذه الطريقة..، الكثير يقولون لي ألهذه الدرجة هانت عليك نفسك "(**العليّان ٢**، ٢٠١٣م، ص١٩)، وتواصل الطبيبة تحرياتها لتكتشف أنَّ سبب مرض خالد هو محاولة والده قتله وهو صغير، وأن محاولة الأب هذه ناتجة أيضًا عن مرض نفسي يتلبس الأب، إذ تصف الطبيبة هذه الحالة بقولها: " بعد أن أنهى الأب كلماته.. أطرقت مفكرة.. لقد فهمت جزءًا من العقدة التي تحيل حياة خالد إلى جحيم لا يطاق.. فهمت أنَّ والده مصاب بما يشبه المرض النفسي ويكره ابنه جراء ذلك، فهو معتاد على كونه الذكر الوحيد بين مجموعة من الإناث ويصعب تقبل وجود ذكر آخر حتى لو كان ابنه الذي انتظره طويلًا.. إنه مريض ويستحق الشفقة "(**العليّان ٢**، ٢٠١٣م، ص٤٠).

وفي رواية "أنثى العنكبوت" فإنَّ المرض يعلق بشخصية حمد شقيق الشخصية الرئيسة أحلام، وهو العقم المزمن الذي يزيد أعباءه النفسية والمادية التي يعاني منها في الأصل بسبب قسوة والدهم عليهم واضطراره لحمد وغيره من الأبناء للتشرد بعيدًا عن جو الأسرة الدافئ، إذ تصف أحلام مرض أخيها حمد بقولها: " وكانت سهرة دامعة دامية أثارت لواعجي وبثت الحزن والألم في نفسي طويلًا، فقد حكى لي قصة حبه وعذابه، حيث التقى بزميلته الممرضة في المستشفى نفسه (...) فبدأت رحلتهما المرهقة المكلفة بعد شهر واحد فقط من زواجهما بدون حمل.. بدأت الرحلة في المستشفيات والمراكز الصحية المجاورة ثم تجاوزتها إلى المستشفيات الخاصة الباهظة الثمن (...) وبمرور السنوات بدأت مدخراتهما تنفد وديونهما تزداد والأمل يذوي شيئًا فشيئًا في نفوس متعطشة لطفل واحد فقط يملأ عليهما حياتهما "(**العليّان ١**، ٢٠١٣م، ص١٢٨، ١٢٩).

أما في أقدم روايتها "عيون على السماء" فإنَّ الشخصية الذكورية المريضة، شخصية ثانوية باهتة الحضور وهي شخصية زوج فاطمة صديقة الشخصية الرئيسة هدى، حيث يتمثل مرضه في كونه مدمن مخدرات ومشروبات روحية، إذ تصف فاطمة لصديقتها هدى هذا البعد الذي اكتشفته في شخصية زوجها بعد مدة من زواجهما، تصفه بقولها: "ورأيت زوجي كما لم أره من قبل.. إنسانًا سكيرًا.. مدمنًا.. هوايته معاكسة الفتيات في الشوارع "(**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص٧٠)، وبالرغم من كون هذه الشخصية ثانوية في عالم الرواية، فإنَّ وجودها يرسخ القناعة لدى المتلقي بأن أيا من روايات العليّان الخمس لا تخلو من شخصية الرجل المريض، الأمر الذي يصب في النهاية في خانة صورة الرجل التي تغلب عليها الأبعاد السلبية كما مرَّ بنا حتى الآن في روايات العليّان، فالأدب الحقيقي، كما يقول شكري عياد: " هو الذي يستطيع أن يصور هذه الحياة بكل سموها وبكل انحطاطها:

بكل جمالها وبكل بشاعتها، ولكنه ليصور هذه النقائض الغريبة يجب أن يتجاوز السطح إلى الأعماق، يجب أن يطرح الخيال الزائف ويغوص وراء الحقيقة "(**عيّاد**، ١٩٦٧م، ص٢٥٤).

رابعًا-الشخصية الإيجابية

وهي التي يطلق عليها حسن بحراوي اصطلاح "الشخصية الجاذبة" ويعرفها بأنها " التي تستأثر باهتمام الشخصيات الأخرى وتنال من تعاطفها وذلك بفضل ميزة أو صفة تتفرد بها عن عموم الشخصيات في الرواية "(**بحراوي**،١٩٩٠م، ص٢٦٩)، وليس بعيدًا عن ذاك المعنى الذي يقصده بحراوي، فهي هنا الشخصية التي تحمل في جنباتها قدرًا أو مقادير من صفات الخير تجعلها محببة إلى الشخصيات الأخرى في أبنية روايات العليّان، وبالرغم من غلبة الأبعاد السلبية السالفة الذكر على الشخصيات الذكورية في روايات العليّان، فإنَّ ذلك لا يعني انعدام وجود الشخصية الذكورية الإيجابية فيها بالمطلق، لكن القارئ يلحظ أن هذه الشخصيات الإيجابية يصطدم وجودها في الروايات بحواجز، قد تكون المرض أو الطلاق أو الموت أو حتى على الأقل الظهور الباهت الذي لا يكاد يذكر، وكما يقول إحسان عباس، فإنَّ انعدام البعد الذي يفصل الفنان والشعب يؤدِّي إلى " أن يغدو أدبه ـ نتيجة لذلك ـ أحفل بالواقعية والإيجابية (...) وفي مثل هذا الوضع يصبح الفنان قادرًا على أن يستلهم القوى المتطورة في أمته، وأن ينتزع نماذجه ورموزه من أعماقها الخيّرة، وعندئذ تصبح النماذج الأدبية من صميم الشعب نفسه "(**عباس**، ١٩٨٠م، ص٢٦٤).

ففي رواية "عيون قذرة" يجد القارئ ثلاث شخصيات ذكورية، تظهر وادعة لطيفة محببة إلى نفوس شخصيات الرواية من الداخل لا سيما إلى الشخصية الرئيسة سارة وشقيقها فيصل، هي شخصية كاظم الشاب العراقي رفيق فيصل في لندن، وشخصية الشيخ الذي قرأ القرآن على سارة فشفيت مما بها من مسّ كان سببًا في معاناتها، وشخصية الشاب سعود ابن عمة سارة الذي خطبها وتزوجها، لكن الواضح أن ظهور هذه الشخصيات كان باهتًا إلى حدٍّ بعيد ولم تكن ذواتا فاعلة أو مؤثرة في الرواية إلا بقدر محدود ليس أكثر.

إذ يقول فيصل عن شخصية كاظم: " نجحتُ في تغيير الموضوع وإعادة الابتسامة لكاظم الذي أثبت لي فعلا بالتجربة أنه إنسان رائع وصديق مخلص (...) قال كاظم إنه يتمنى أن يأخذ هذه الوظيفة ليغادر وجه هاري النحس إلى الأبد، لكنني أكثر حاجة منه لها.. أكبرته في نظري وتقديري له يزداد ويتعاظم في داخلي " (**العليّان** ٥، ٢٠١٤م، ص٥٨، ٦٠)، أما الشيخ قارئ القرآن فتصف سارة دوره الإيجابي في عالم الرواية بقولها:

" سألني الشيخ بصوت رزين:

- ألا زال رأسك يؤلمك ؟

استندت على ليلى وأنا أنهض:

- كلا يا شيخ.. لكنني أشعر بأقدامي ثقيلة جداً..

ابتسم الشيخ ابتسامة خفيفة وهو يقول:

- خير.. خير إن شاء الله.. استخدمي الزيت والماء وواظبي على حضور الرقية.. واعلمي أن شفاءك بالقرآن، لذلك أنصحك أن تقرأي وردًا منه يوميًا" **(العليّان ٥، ٢٠١٤م، ص٢٦٨)**.

وكذلك الشاب سعود الذي يبدو ظهوره في عالم الرواية، شخصًا غارقًا في حب سارة خطيبته، حيث تصف ذلك بقولها: " تجولت مع ليلى وسعود في الفيصلية، لكنني كنت خجلة ومنقبضة ومترددة.. وما أن تقترب يد سعود من يدي حتى أبعد بسرعة، وأنا أشد قبضتي على صدري، ولم أستطع أن أبتاع شيئًا ذا بال.. كلما اقتربت من تنورة أو قميص أشعر بظل ورائي، وإذا هو سعود يتأمل ما اخترته بابتسامة إعجاب قائلا بهمس:

- سيكون رائعًا حينما ترتدينه.. (...)

ثم أرجع مقعده إلى الوراء متطلعًا إليّ وهو يقول بابتسامة:

- أما آن للشمس أن تبزغ في وجوهنا نحن المحرومين ؟.. "**(العليّان ٥، ٢٠١٤م، ص٢٩٤، ٢٩٥)**.

فالواضح أنَّ شخصيات هؤلاء الرجال الثلاثة شخصيات وادعة بناءة محبة لا سيما للشخصية الرئيسة سارة وشقيقها فيصل، لكن الأمر الذي لا مرية فيه أن ظهورها في عالم الرواية ظهور باهت إلى حد بعيد.

أما الشخصية الذكورية الإيجابية الوحيدة في رواية "بيت من زجاج" فهي شخصية الطبيب الذي عرضت الشخصية الرئيسة منى شقيقتها الصغرى ريم عليه قبل وفاة الطفلة، حيث تصف منى ذلك الموقف بقولها:

" وبعد أن انتهى الطبيب من فحص ريم قال لها باسمًا:

- هل تحبين أفلام الكارتون يا ريم؟

أجابته الصغيرة بتلقائية:

- لا..

- إذن هل تحبين العرائس والألعاب؟

- لا..(...)

- جميعنا نحب ماما.. وبالإضافة إلى حبنا لها نحب أشياء أخرى كالألعاب والحلوى وغيرها..

أجابته ريم بإصرار:

- كلا.. كلا.. لا أحب سوى ماما.. (...)

انتحى أبي بالطبيب جانبًا وأخذا يتحدثان همسًا وقد عكست عينا الطبيب شفقة عميقة وجهها إلى ريم.. "**(العليّان ٣، ٢٠١٣م، ص٦٩)**.

وفي رواية "بكاء تحت المطر" يحرّك حضور المريض خالد شجون نفس الطبيبة، لأن مرآه يذكرها

بالرجل الذي أحبته، إذ تقول واصفة ذلك: " كان هذا هو اللقاء الأول معه.. مع الصورة المجسمة لحبيبي الراحل.. صورة خلتها عادت من لحم ودم كما كانت قبل أعوام.. زوجي وحبيبي حسن.. الهيئة نفسها.. والمنظر نفسه، وله ذات الوجه الأسمر المهيب والشارب الأسود الخفيف.. والشفتان ذاتهما الغاضبتان من العالم بأسره.. هو.. هو بشحمه ولحمه.. هو هذا المريض.. خالد.. "(**العليّان ٢، ٢٠١٣م**، ص١٣)، فظهور هذه الشخصية هنا هو غاية في الوداعة والإيجابية، لأنه الرجل الذي تعشقه المرأة الشخصية الرئيسة، لكن الحاجز الذي يقف حائلًا دون استمرار هذه الشخصية في لعب هذا الدور الجميل في عالم الرواية هو الموت، تقول الطبيبة:

" هتفت جزعة:

– عمي.. ماذا حدث.. هل زوجي حسن مريض ؟

هز رأسه دون أن يتكلم.. صرخت دون وعي:

– ما به. ارتجفت شفتاه وهو يقول برهبة:

– ذلك المرض اللعين.. السرطان.. "(**العليّان ٢، ٢٠١٣م**، ص١٥).

وعلى المنوال نفسه، تستمر الحواجز في الوقوف دون الشخصيات الذكورية الإيجابية أن تؤدِّي دورًا فاعلًا ومهمًا في الروايات، فشخصية سعد في رواية "أنثى العنكبوت" هو الشاب الذي تحبه الشخصية الرئيسة أحلام وتصف شعورها نحوه بقولها: ".. ماذا حدث... وهل هذا من أردته من مهاتفته... أن يسقيني حبه وعشقه وولهه كما تسقي الزهرة العطشى بالماء (...) إنه لم يطلب علاقة غرامية بلا هدف، أو لهوًا ينذر بمأساة... بل أحبني وأرادني زوجة على سنة الله ورسوله "(**العليّان ١، ٢٠١٣م**، ص٨٧، ٨٨)، لكن والدها يقف سدًّا منيعًا دون زواجها منه " أخذت مكاني بينهم لحظات قبل أن أسمع صوت أبي وهو يعلو ثم صراخه الذي يتردد في نواحي البيت:

– ابنتي ليست للزواج.. إنها مخطوبة..

نزلت عليّ كلماته كالصاعقة، فلم أحر جوابًا، بل مضينا نتبادل نظرات صامتة ذاهلة تغلب فيها الدهشة والتعجب على أي إحساس آخر "(**العليّان ١، ٢٠١٣م**، ص١٣٨، ١٣٩).

وكذلك في رواية "عيون على السماء"، إذ تحوي الرواية ثلاث شخصيات ذكورية إيجابية، لكن الحواجز تحول دون أن تستمر هذه الشخصيات في أداء الأدوار البناءة، فيوسف شقيق الشخصية الرئيسة هدى يتعالى على طيش الشباب، وينضم إلى صفوف المقاومة ضد المحتل بعد غزو الكويت سنة ١٩٩١م.

" تكلمت الأم:

– أخوك يوسف.. لقد غادرنا اليوم إلى الكويت.. يقول بأنه لا بد أن ينضم إلى رجال المقاومة الشعبية.. حاولت أن أقنعه بأن يبقى هنا ولكنه رفض.. إن أباك يشجعه على هذا " (**العليّان ٤، ٢٠١١م**، ص٤٥)؛

ليعود سالمًا بعد مدة " بينما أم يوسف راكعة تصلي صلاة الظهر.. دخل يوسف إلى البيت.. صرخ الجميع فرحًا بسلامة وصوله (...) أخبرهم بكلمات سريعة.. كيف أن الكويت بقيت حطامًا بعد خروج المعتدين مهزومين " (**العليّان ٤، ٢٠١١م، ص٥٨، ٥٩**)، فشخصية يوسف هنا تؤدي دورًا بناء وإيجابيًا في عالم الرواية، لكنها باهتة المعالم محدودة الظهور.

وكذلك سالم ابن عم هدى يتبدى دوره الإيجابي في مظهرين؛ أولهما انضمامه إلى صفوف المقاومة الشعبية التي دافعت عن الكويت إبان غزوها وعودته سالمًا أيضًا (**العليّان ٤، ٢٠١١ ص٥٤، ٥٦**)، وثانيهما كونه الشاب الوسيم الذي أخرج هدى من آلامها بعد انفصالها عن زوجها الأول، إذ تصفه هدى من هذا الجانب بقولها: " سالم.. إنه وسيم بوجهه الأسمر القوي وشاربه الخفيف وعينيه العسليتين.. إنه أجمل من زوجها بكثير.. وأصغر منه بكثير.. إنه في الخامسة والعشرين من عمره.. إنه يناسبها عمرًا "(**العليّان ٤، ٢٠١١م، ص٥٨**)، ومن ثم يتزوجها، لكن المشكلات تبدأ فيما بعد عندما تأخذه الغيرة من طفلها المعاق جابر، وهنا يتجسد الحاجز الذي يحول دون استمرار سالم في لعب الدور الإيجابي، إذ يصل به الأمر في النهاية إلى ضرب هدى ومن ثم الزواج عليها، إلى أن يقع الطلاق بينهما أخيرًا.

" تكلم [والدها] بصعوبة:

– لقد أرسل لك ورقة طلاقك بالبريد اليوم..

شلتها الصدمة.. فلم تدر ما تقول.. وهل توقعت شيئًا آخر.. أن يتمسك بها زوجًا مثلًا ويرفض طلاقها.. من قلبها تمنت ذلك.. ولكن كلمات والدها اغتالت كل أمل لها في عودته.. بل وقتلت كل شيء جميل داخل نفسها الحائرة "(**العليّان ٤، ٢٠١١م، ص١١١**).

أما الشخصية الذكورية الثالثة فهو الشاب عماد ابن الجيران، الذي أغرمت به هدى في صغرها قبل زواجها الأول " إنه ابن الجيران لم يرها أبدًا.. ولم تره سوى مرة واحدة فقط، أعجبت به بشدة.. سمعت مرارًا من أمه بأنه يبحث عن فتاة تناسبه في الثقافة والتعليم، وكانت تسر كثيرًا عندما تقول أمه بعد صمت طويل:

– إنه لن يجد سواك يا هدى، فأنت الفتاة الوحيدة التي تناسبه.

كانت تشعر بسعادة شديدة وهي تسمع هذا الكلام.. كانت تشعر بأنها تحلق بعيدًا في الفضاء وتكاد تمس أحلامها البعيدة بيدها "(**العليّان ٤، ٢٠١١م، ص١٥**).

وتتزوج هدى زواجها الأول من الرجل الثري عبدالله عيسى، ذاك الزواج الذي تفشل فيه ومن ثم تتزوج للمرة الثانية من ابن عمها سعد وتفشل في هذا الزواج للمرة الثانية أيضًا، وتعود العلاقة للتجدد مرة أخرى بينها وبين عماد بعد سنوات من البعد ويتقدم

لخطبتها، لكن الحاجز بينهما يعود ويتجدد مرة أخرى بوفاة ابنها جابر في ليلة زفافها من عماد، لتنهار بعدها وتطلب منه تطليقها

" همست هدى:

– إذا كنت تحبني حقًا.. فطلقني.. أرجوك يا عماد.. من أجلي طلقني.. بحق حبنا الكبير بحق أحلامنا الحلوة.. طلقني.. طلقني..

وأجهشت بالبكاء.. انهارت في لحظة واحدة.. (...).

مسح دمعة فرت من عينيه ثم قال بأسى:

– هدى.. أنت.. طالق.. "(**العليّان ٤**، ٢٠١١م، ص١٥٢، ١٥٣).

إذن فهي شخصيات فيها مقادير متفاوتة من الخيرية والتمظهر الإيجابي في الروايات، لا سيما في علاقاتها مع الأبطال في كل رواية، لكن الحواجز تحول في كل مرة دون أن تؤدِّي هذه الشخصيات أدوارها على أتم وجه، فإمَّا أن يكون الحاجز هو الظهور الباهت في عالم الرواية أو الموت أو الطلاق أو المرض، وسواء اتفقنا مع الروائية العليّان في هذا الجانب أم لم نتفق، فالذي يحسب لها أنها استطاعت بناء هذه الحواجز بحرفية واضحة في أبنية الروايات، والكشف" عن دور الشخصية في مسرح الأحداث وتأثيرها في منظومة السرد وقيم الرواية الجمالية، وهي مناط نجاح الروائي في بناء تقنيات سرده ووسائله الفنية على وجه العموم وبناء الشخصية على وجه الخصوص "(**شعث**، ٢٠١٠م، ص ١٤).

الخاتـمــة

إذن فالنتيجة التي يخرج بها المتلقي بعد هذه القراءة، هي غلبة طباع السوء على شخصيات الرجال على امتداد الروايات الخمس التي أبدعتها العليّان، وتنوعها بين: **الشخصية الشريرة**، التي تتبدى في الروايات غالبًا في صورة الرجل الخائن لزوجته وأولاده خاصة، أو في صورة الرجل الفظ القاسي البالغ القسوة، في حق الشخصيات الأنثوية والذكورية التي تحت سيطرته. وبين **الشخصية المنكسرة**، التي يتمثل قبحها في انكسارها واستكانتها، بحيث تكون معينة للشخصيات الشريرة، الذكورية والأنثوية، على التمكن من بسط إرادتها وإلحاق الأذى بها وبغيرها من الشخصيات في الروايات.

وبين **الشخصية المريضة** المصابة بأمراض كالسكري أو الإيدز أو الرهاب النفسي أو الإدمان، وبالرغم من أنَّ المرض في حدِّ ذاته هو ظاهرة عضوية بيولوجية، وغالبًا لا يكون للإنسان دخل في إصابته به، إلا أنه يمكن عدّه من الجانب الفني هنا شكلًا من أشكال الصورة السلبية للرجل في الروايات؛ لأنَّه يأتي بمثابة تكملة للبعدين السابقين: الشخصية الشريرة والشخصية المنكسرة، وإمعان في دمغ صورة الرجل

بمزيد من السلبية في الروايات. وبين **الشخصية الإيجابية** الودودة المحببة في أبنية الروايات، لكن ظهور هذه الشخصيات الإيجابية يصطدم في الروايات بحواجز، قد تكون المرض أو الطلاق أو الموت أو حتى على الأقل الظهور الباهت الذي لا يكاد يذكر.

وبغض النظر عن اتفاقنا مع العليّان أو اختلافنا معها، في تصورها هذا لطبيعة دور الرجل في المجتمع السعودي بوجه خاص والخليجي بوجه عام، فقد أسهمت بالدور المنوط بالأديب فعله والقيام به، بوصفه مصلحًا ومنظرًا ينشد الخير للمكون البشري الذي ينتمي إليه، وذلك من خلال تسليط الضوء على الجوانب الفضيلة والرذيلة من حياة المجتمع، وصولًا به إلى مدارك عليا، ولعلنا نستشهد في هذا الموضع بقول جورج ديهامل: " فالكاتب يؤدِّي في نظري وظيفة اجتماعية عندما يعيننا على فهم الإنسان والعالم فهما أصح، وعندما يأخذ في " نقل المجهول إلى المعلوم " (...) أي عندما يكون مكتشفًا حقيقيًا ومخترعًا ومنقبًا "(**ديهامل**، ٢٠٠٥م، ص ٢٤٣).

المراجـــع

أولاً: المراجع العربية

الأرناؤوط، عبداللطيف، "قراءتان في مجموعتين قصصيتين: ١- مقاطع من حياة مجموعة لوحات قصصية فنية ٢- خطأ في حياتي والعلاقات الأسرية" (*مجلة قوافل*)، السعودية، مجلد ٣، العدد (٥)، (١٩٩٥م)، ٧٦ - ٨٩.

بحراوي، حسن، *بنية الشكل الروائي، الفضاء الزمن الشخصية*، ط ١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.

برباري، منيرة: بناء الشخصيات في رواية "*عرش معشق*" لربيعة جلطي، (رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ٢٠١٥م).

الشريف، سمير أحمد، *"المرأة الجديدة في قصص قماشة العليّان"*، مجلة (علامات في النقد الأدبي)، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، مجلد ١٢، (الجزء ٤٧)، (٢٠٠٣م)، ٦٦٣ -٦٧٠.

شعث، أحمد، *"بناء الشخصية في رواية "الحواف"* لعزت غزاوي"، مجلة (جامعة الخليل للبحوث)، فلسطين، المجلد ٥، العدد (٢)، (٢٠١٠م)، ١ - ١٨.

عباس، إحسان، *أصابع حزيران والأدب الثوري، ضمن كتاب "من الذي سرق النار، خطرات في النقد والأدب"*، جمع وتقديم وداد القاضي، بيروت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م.

بن عباس، ليندة، بنية الشخصية في رواية "*التبر*" لإبراهيم الكوني، (رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة محمد بوضياف، ٢٠١٥م).

العليّان، قماشة، *أنثى العنكبوت*، ط٨، الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

.....، ***بكاء تحت المطر***، ط ٧، الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

.....، ***بيت من زجاج***، ط ٧، الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

.....، ***عيون على السماء***، ط ٥، الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

.....، ***عيون قذرة***، ط ٥، الدمام: دار الكفاح للنشر والتوزيع، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

عيّاد، شكري، *تجارب في الأدب والنقد*، القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.

الفقير، سالم: *الرؤية والتشكيل في أعمال قماشة العليّان الروائية*، (رسالة ماجستير، الأردن، جامعة مؤتة، ٢٠٠٩م).

لحمداني، حميد، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*، ط ١، بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

مرتاض، عبدالملك، *في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد*، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨م.

نعيمة، ميخائيل، *الغربال*، ط ١٥، بيروت: دار نوفل، ١٩٩١م.

ثانياً: المراجع المترجمة

تودوروف، تزفيتان، *مفاهيم سردية*، ترجمة عبدالرحمن مزيان، ط١، الجزائر: منشورات وزارة الثقافة الجزائرية، ٢٠٠٥م.

ديهامل، جورج، *دفاع عن الأدب*، ترجمة محمد مندور، دمشق: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ٢٠٠٥م.

ويليك، رينيه وأوستن وارين، *نظرية الأدب*، ترجمة عادل سلامة، الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٩٢م.